كتب

يتحرّى الصحافي المصري في حواره مع المؤرّخ التونسي الراحل، الذي صدر عن «المركز العربي» في كتاب جديد، تقاطعات صاحب السيرة بإنتاجاته الفكرية، ويقف عند قراءته لمفاهيم كالحداثة والتقليد، وتجاوزه للاستشراق بخاصة في ثلاثيّته حول السيرة النبوية

هشام جعيّط في حوار مع كارم يحيى

ملامح من سيرة المؤرِّخ ومشروعه الفكري

أنس الأسعد

عام 2018 كان للصحافي المصري كارم يحيى لقاءات عدة مع المؤرّخ التونسي هشام جعيّط (1935 - 2021)، في منزله بضاحية المرسى شمال تونس العاصمة، وجرت خلال ثلاثة أشهر بين فبراير/ شباط ومايو/ أيار، حيث حاور فيها الصحافي والمترجم ومراسل «الأهرام» في تونس صاحِبَ «أوروبا والإسلام» (1978)، ولكن هذه الحوارات لم تر النور إلّا بعد ستّ سنوات في كتاب صدر حديثاً عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، بعنوان «هشام جعيّط: حوار في الفكر والتاريخ والسيرة». ويُمثّل الكتاب، بكلمات مؤلّفه: «دراسة حالة لمثقّف يبدو في الوهلة الأولى محافظاً، لكنّه يبحث عن توازٍ بين التراث والحداثة، وبين العروبة والإسلام وأوروبا، وبين ما كان والراهن وما سيأتي، وبين الذات والآخر»، أو بكلمات الباحث اللبناني خالد زيادة الذي قدّم للكتاب لافتاً إلى أنّ جعيّط «قد صنع ثقافته وحدّد اتجاهه بنفسه». تُركّز أسئلة يحيى في الفصل الأول: «بين التقليد والحداثة»، على الخطّ الفاصل بين المفهومين، وعلى المسافة التي قطعها جعيّط من تبنّي الاستشراق إلى نقده مع الاستفادة من أدواته، وهُنا يُجيب المُفكّر والمؤرّخ التونسي، بصراحة، قائلاً: «لا أرى نفسي ممّن ينتقدون الاستشراق والمستشرقين، باعتبار أنّ كلّهم فاسدون ومناوئون للإسلام»، لكنّ الإجابة تأتي في سياق عرض سِيَري عن العائلة «الزيتونية» المُتديّنة، والنشأة في كنفها، والتدرّج في التحصيل العِلمي، والخلفية السياسية التي أثّرت بطبيعة الحال في تكوينه الفكري. تُتيح هذه الحوارات المفتوحة بتقنيتها البعيدة عن الالتزام بالسجال الفكري المُحدّد، وبما فيها من انسجام بين صاحب السيرة وفكره، مجالاً للتأمّل بعُمق في مُنجَز مفكّر أصيل، استوعب آراء الكثير من المؤرّخين العرب والأجانب، لكنّه في نهاية المطاف كتب مقولته التاريخية الخاصة.

ويُتابع جعيّط بَسْط رؤيته التي يُسمّيها «النقد المتوازن» مُحيلاً إلى عمله «أوروبا والإسلام» (1978) الذي بيّن فيه تأثُّر المستشرقين بادعاءات التفوّق الغربي، لكن هذا لا يمنع أن بينهم من درسوا من كثب تاريخ الإسلام كماسينيون وفلهاوزن، وأوضح في «الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المُبكّر» (1989) أنّ «الرؤية الاستشراقية قاصرة حين تطلب مصادر متزامنة مع التاريخ الذي تكتب عنه. فلو اتّبعنا هذا المنهج لَما أمكن أن يكتب المؤرّخون الغربيون عن التاريخ الروماني، فتيتوس ليفوس مثلاً الذي عاش قبيل المسيح بقليل، وكتب عن القرون الثلاثة قبله».

تالياً، يعود المُحاور في الفصل الثاني «السيرة الذاتية والتكوين الثقافي»، إلى كتاب «الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي» (1974)، في محاولة للتعمّق أكثر بتفاصيل النشأة والتكوين العِلمي والعوامل المؤثّرة فيهما، ولعل أبرز هذه المفارقات بين أجيال العائلة، هو حضور «الزيتونة» بصفتها مؤسسة تعليمية أساسية في تكوين الأجيال الكبيرة منها، كوالد هشام وأجداده، مقابل المدرسة «الصادقية» (تأسّست على يد خير الدين التونسي عام 1875) عند جيله، التي دخلها جعيّط، ابن مدينة تونس القديمة، وهو في عُمر الخامسة، وبذلك مرّ بتجربة «الكتاب» لحفظ القرآن في أيام الآحاد وحسب.

في المقابل ظلّ نمط الحياة «السوري» (تُستخدم بالدارجة التونسية للدلالة على كلّ ما هو معاصر وغير تقليدي) طاغياً، رغم أنّ العائلة متديّنة والوالد شيخ، أمّا الجدّ فيحرص على اعتمار «الشاشية» (الطربوش)، كذلك تحضر في استذكار هذه المرحلة الحرب العالمية الثانية والإنزال الألماني في تونس في تشرين الثاني/ نوفمبر 1942. كما يتطرّق إلى حضور الفرنسية، الذي ظلّ ضعيفاً في هذه المرحلة من حياته، مقارنة بالعربية، التي لا يعتبرها لغته الأمّ، بل التونسية، وبالتالي لم يتقن لغة موليير حتى مرحلة البكالوريا. السفَر الأول لجعيّط خارج تونس كان إلى الجزائر في سن السابعة عشرة، وفيه اكتشف المؤرّخ، برفقة والده، الفوارق بين البلدين، حين كان الحديث بالعربية في الجزائر شبه معدوم، لكن يبقى التوجّه للدراسة في «دار المعلّمين العُليا» في برايس هي الخطوة الأهمّ في المرحلة التالية على «الصادقية»: «شعرتُ باعتزاز زائد كون تكويني نصف عربي نصف فرنسي حقّاً. قبلتُ على نفسي التحدي: هل أستطيع أن أُزاحم الفرنسيين وفي ميدان ثقافتهم؟ في ميدان هو قلب الثقافة الفرنسية»، وليبدأ عام 1955 بدراسة علم التاريخ في السوربون حتى حصل على شهادة «التبريز» عام 1962. واللافت أنّ في كلّ هذه السنوات لم ينشدّ جعيّط إلى أي نشاط سياسي، مكتفياً بمتابعة السياسة من بعيد فقط، ومن دون أن يجعل أحداثها تؤثّر في انكبابه المنقطع على الدراسة، بل إن القارئ يلحظ في نبرته وهو يستذكر تلك المرحلة والإرهاق الذي صاحبها في تحصيله العلمي، وكأنها ماثلة حقّاً أمام ناظري الشيخ الثمانيني وهو يتحدّث إلى مُحاوره.

وعلى مستوى آخر، يتناول جعيّط في هذا الفصل من هذه الحوارات قصّة كتابه «الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية» (1986)، وعلاقته بكلود كاهان الذي اشتغل معه مرحلة الدكتوراه، وهو من عرّفه على كتاب مشابه حول البصرة ألّفه المؤرّخ العراقي صالح أحمد العلي، تحت إشراف هاملتون غِب، وتجربته بين عامَي 1962 و1968 في الكتابة لصالح مجلّة «الفكر»، التي كانت جماعة فكرية تضمّ محمد مزالي والبشير بن سلامة وعبد المجيد بن جدّو، والمضايقات الأمنية التي تعرّض لها بعيد احتجاجات 1968 التي امتدّت لتشمل الأكاديمية التونسية، وغضب بورقيبة منه إثر اعتذاره عن كتابة تاريخه الشخصي.

«الثلاثية الفكرية» عنوان الفصل الثالث، وفيه تبحث أسئلة كارم يحيى في العلاقة بين كتب «الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي» (صدر بالفرنسية أولاً عام 1974)، و«أوروبا والإسلام» (بالفرنسية، 1978)، و«أزمة الثقافة الإسلامية»، وهي نصوص كُتبت بين السبعينيات ومطلع القرن العشرين، ويوضّح جعيّط أنّ «هذه الكتابات جاءت ردّة فعل على ما وجدت عند مثقّفين تونسيّين درسوا في فرنسا من احتقارهم للمشرق العربي وابتعادهم عنه». وفي سياق الحديث عن الكتاب الأول يلفت إلى نقده النُظم السياسية العربية، بعيداً عن ابتذال مصطلح الفاشية، ذات الواقع التاريخي الأوروبي، ومقاربته لهذه الأنظمة من باب الاستبداد الشرقي الذي تحدّث عنه مونتسكيو وماركس وهيغل.

أمّا كتابه «أوروبا والإسلام»، وصدر في العام ذاته الذي صدر فيه «الاستشراق» لإدوارد سعيد، فنجد جعيّط يُشدّد على أنه «لا يدخل في نقد الاستشراق والمركزية الأوروبية وحسب»، في الوقت عينه الذي ينطلق فيه بكتابه هذا من «أنّ ولادة أوروبا للتاريخ قد تمّت، ولم يكُن بإمكانها أن تتم إلّا عبر الإسلام»، و«أنّ فراغ القرن العاشر الميلادي بأوروبا يتوافق مع امتلاء القرن الرابع الهجري ذروة الكلاسيكية الإسلامية». وحول تزامن صدور هذا الكتاب مع «الاستشراق»، يعرب جعيّط عن أنّ كتاب سعيد لامع، ومكتوب بأسلوب يعبّر عن ثقافة واسعة لصاحبه، «لكنّ العرب صفّقوا للكتاب لأنه مكتوب من أميركي... قالوا: آه كتبه عربي أميركي». ويُضيف: «لا يوجد شيء اسمُه عقل عربي وعقل أوروبي. هو عقل إنساني. لكن، لكوني عربيّاً يصحّ القول بأنّ وجداني عربي. لكن تظلّ الفكرة في هذا التقسيم بين عقل ووجدان على هذا النحو استعمارية».

ويُختتم الكتاب بفصل أخير حول «ثلاثية السيرة النبوية»: «في السيرة النبوية: الوحي والقرآن والنبوّة» (1999)، و«في السيرة النبوية: تاريخية الدعوة المحمدية في مكّة» (2006)، و«في السيرة النبوية: مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام» (2015). ويعتبر جعيّط الثلاثية أهمّ عمل أنجزه، وأنّه لم يكتب «بيوغرافيا»، بل انطلق من كتابة تاريخية بالصفة النقدية الكلاسيكية المعهودة.

منهج جامع

في الحوار الذي اجراه الصحافي المصري كارم يحيى، يُميّز المؤرّخ التونسي الراحل هشام جعيّط اختلاف المصادر التي اعتمد عليها في كلّ جزء من «ثلاثية السيرة النبوية»، حيث اعتمد في الأول منها على القرآن لتدقيق مفهوم الوحي، وفي الثاني عاد إلى سيرة ابن إسحق وكذلك الطبري، أمّا في الثالث فدرس المدينة وفقاً لمنهج جامع بين النواحي الإنسانية والاجتماعية والطبوغرافية.

حوارات مفتوحة على مواضيع شتّى أجريت عام 2018

يرى أنّ القسمة بين وجدان عربي وعقل أوروبي استعمارية

هشام جعيّط

نظرة أولى

صدر كتاب **الأنسنة في تمثّلات الفكر العربي المعاصر** لأستاذة الدراسات الدينية والباحثة اللبنانية ليندا غدّار عن «دار الفارابي». تضيء المؤلّفة منظومة التفكير الإسلامي وعلاقتها بحقوق الإنسان، في محاولة لإظهار مدى تقاربها أو تباعدها مع النزعة الإنسانية التي ظهرت في أوروبا، كما تقف عند خُلاصات وجوامع مشتركة بين المفكّرين العرب والمسلمين حول قضية الإنسان في الإسلام خلال الزمان المعاصر، وتُبرز كلّيات القرآن الأساسية في هذا الصدد، باعتبارها مظاهر التفكير والاجتهاد اللذين تبلورا بدءاً من العصر الإسلامي الأول وإلى اليوم.

رفاقنا في هافانا.. كوبا والاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية، 1959 - 1991 عنوان الكتاب الذي صدر لأستاذ الدراسات الأوراسية والمؤرّخ البلغاري رادوسلاف يوردانوف عن «جامعة ستانفورد». يعود المؤلّف إلى أوائل الستينيات حين تمّ تكليف دبلوماسيّي أوروبا الشرقية بمهمّة تثقيف القيادة الكوبية الجديدة بتنظيرات الماركسية اللينينية، وتوجيهها إلى «الطريق الصحيح للتنمية»، مفصّلاً وجهات نظر العديد منهم وتقييماتهم منذ انتصار الثورة الكوبية وحتّى تفكّك الاتحاد السوفييتي، ومضيئاً على وثائق جديدة حول دور كوبا إبّان الحرب الباردة.

بتوقيع المترجمة السورية رشا صادق، تصدر، عن «دار المدى»، الطبعة العربية من كتاب الباحثة الإيطالية كارلا ماليت **حياة اللغات العظيمة: العربية واللاتينية في البحر المتوسط خلال العصور الوسطى**. يدرس الكتاب طبيعة هاتين اللغتين وسلوكاتهما اللتين قاطعتا شواطئ البحر المتوسط بعضها عن بعض، كما يسرد سيرة حياة مشوّقة للغة وهي تنقل المعارف من أرض إلى أرض في زمن سبق ظهور اللغات القوميّة في أواخر العصور الوسطى وبداية الحداثة، كما يضيء زوايا غير مطروقة للمهتمّين باللسانيات والتقاليد الأدبية والتعبير عن الثقافة في عالم متعدّد اللغات.

في كتاب **الوسيط في قواعد الموسيقى العربية ونظرياتها**، الصادر عن «دار كلمة»، يتناول الباحث أحمد يوسف الطويل، الموسيقى العربية ونظرياتها، ويمهّد لبعض النظريات الموسيقية العامة التي تؤهّل إلى فهم قواعد الموسيقى الشرقية الأصيلة؛ وتشكّل مدخلاً لتفاصيل الموسيقى العربية بروافدها المتعدّدة وشخصيتها المميزة. يُراعي المؤلف في إعداد كتابه التنقّل بين ما هو غربي صرف إلى آخر شرقيّ بحت، في محاولة للقول إنّ قواعد الموسيقى ونظرياتها واحدة، على الرغم من تنوع مدارسها، وإنّ العِلم الموسيقي ما هو إلّا وسيلة لفهم هذا الفنّ الجميل.

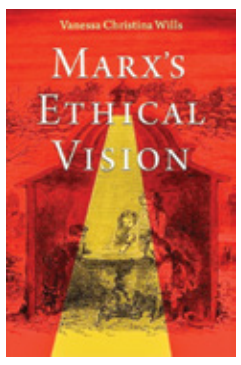

رغم أنّ الشيوعية لا تُبشّر بالأخلاق من منطلق جوهراني ثابت، وفقاً لـ«البيان الشيوعي»، إلّا أنّ كاتبا البيان الفيلسوف الألماني كارل ماركس ورفيقه فريدريك أنغلز، كانا قد كتَبا انتقاداتٍ لاذعة بحقّ «الأخلاق البرجوازية»، إذ شبّه ماركس الفلسفة الرأسمالية بأنها «تدميرية شبيهة بمصّاصي الدماء»، وأعرب عن وجهات نظر أخلاقية حول الطبيعة البشرية، والظروف اللّازمة لازدهار الإنسان، وهذا ما تقرؤه أستاذة الفلسفة في «جامعة جورج واشنطن» فانيسا كريستينا ويلز بكتابها **رؤية ماركس الأخلاقية** الصادر عن «منشورات جامعة أكسفورد».

يتناول كتاب **إنهم يسرقون ديني** للباحثة الأميركية ليزا بوكر، الذي صدرت الطبعة العربية منه عن «البحر الأحمر للنشر» بترجمة أحمد الشيمي، قضية الاستيلاء الديني والثقافي، وتُمثّل مؤلّفته لهذه القضيّة من خلال السياق المصري، وما يتعرّض له من إحلال الأسماء الأجنبية في المطاعم والمدارس والمستشفيات وغيرها، لأغراض الترويج والبيع، كما تقرأ انتقال هذه الظاهرة إلى حقل العلامات الدينية كاللباس والطقوس. تُدرّس بوكر الأخلاق في «جامعة إيست ويسترن»، وتُركّز في أبحاثها على عِلم الأديان المُقارن وتأثير الاختلافات العقائدية على المجتمع.

عن «الآن ناشرون وموزّعون»، صدرت طبعة جديدة من كتاب **سير الملوك: أو سياست نامه** لنظام المُلك الطوسي بترجمة أستاذ النقد الأدبي والباحث الأردني يوسف بكّار. الكتاب الذي ألّفه الوزير السلجوقي خلال القرن الحادي عشر، يجمع بين التاريخ والدين والسياسة، حيث يحتوي على الآداب السلطانية والتشريفات الملكية وطقوسها وتقاليدها، كما يرصد فكر الحركات الباطنية من منظور رجل الدولة المثقّف والمسيّس الذي يناقش خطرها على دولته آنذاك، وبأسلوب يستند إلى تجاربه الخاصة في الإدارة والحُكم، ومعرفته العميقة بحوادث التاريخ وسيرة الحكّام.

يُناقش كتاب **الرأسمالية والتقدّم الاجتماعي** لأنطوان براندر، الصادر عن «مؤسسة الفكر العربي» بترجمة جان ماجد جبّور التحدّيات المعاصرة التي تُواجه التقدّم الاجتماعيّ في ظلّ الرأسماليّة، مركّزاً على الفترة التي أعقبت الحرب العالميّة الثانية. يرى الكاتب أنّ التقدّم الذي شهدته المجتمعات الغربيّة قد تباطأ وتراجعت آثاره الإيجابيّة بسبب التدهور البيئيّ المتزايد، ممّا يضع مستقبل هذه المجتمعات الاستهلاكيّة في موقف حرج. يتناول الكتاب أيضاً التحدّيات التي فرضتها الثورة المعلوماتيّة على العمالة الغربيّة، وسياسات الحكومات لمواجهتها.